

أدب مقموع في العالم العربي يتحاشاه جميع الكتاب

الاعتراف فرصة للتطهر والتحرر لكن العرب يهابونه

لأسباب وعوامل معيارية وشخصية وموضوعية وحضارية لا يزال الأدب العربي يفتقر إلى مخزون كاف من الكتابات التي تنقل حياة الكاتب البدع وتفصيل حميمة من يومياته بتجرد وشفافية وصراحة، في تجربة غاية في الجرأة والكشف يطلق عليها أدب الاعتراف الذي ذهب الغرب مسافة بعيدة في عرضه أمام القارئ دون عقد ولا إكراهات وخلدت قامات كبيرة في هذا المجال نذكر جان جاك روسو ونييتشه وبودلير، لكنه ظل نادرا عربيا.

محمد بن احمد العلوي
صحافي مغربي

على خلاف الغرب فإن الثقافة العربية لا تتحمل أدب الاعتراف الذي يتجرأ على الكشف وتعرية طبقات سميكة من جلد الكاتب والمجتمع الذي يعيش فيه على حد سواء كحاضن ومشكل لتجربة الكاتب. في التجربة العربية المعاصرة بالخصوص تم تخليد أسماء توفقت في الاعتراف بصدق وجرأة أدبية لافتة، وهي من الندرة بشكل يصعب معه الركون إلى مقولة وجود أدب اعتراف عربي قائم الذات، لاسيما وأن أعمال كـ"الخبز الحافي" لمحمد شكري شكلت قلعة كبيرة في هذا الصنف من الأدب القائم على المكاشفة والتجرد، مقارنة بالقرون الماضية عندما كان الكاتب العربي انذاك أكثر جرأة في الاعتراف بما يختلج بداخله على الأقل.

أدب الاعتراف صنعة فريدة لتجربة جوانية تساهم في نضجها سياقات ثقافية وسيكولوجية وأيديولوجية ودينية، لا تنظر إلى النجاحات فقط، بل تركز على السقطات دون حيل ولا وجل، الشيء الذي يعطي لقصة الكاتب روحا متجددة تنبعث كل مرة وتساهم في ردم التابوهات وتمديد مساحة الحرية والإبداع والخلق.

البعد عن الصراحة في اعترافات الكتاب العرب يردها البعض إلى الخوف من بطش المجتمع المحافظ ومؤسساته

كان الاعتراف فرصة للتطهر من النقاظ والتحرر من الذنوب كما صاغه قديسون ورواد الكنيسة منهم أغسطين، وكما التقطه كتاب غريغور وعلى رأسهم جان جاك روسو الذي كتب اعترافاته لإراحة ضميره، عكس الثقافة العربية التي تشجع على الستر وعدم اللجوء إلى فضح السلوك الفردي والجمعي. وبصيغة قاطعة لا يوجد فن "السيرة الاعترافية" في العالم العربي، كما يؤكد الكاتب العراقي علي بدر، فهذا الانكشاف يعرض المرء في الإضرار الثقافي والاجتماعي إلى نوع من الإذلال أو الفضيحة، ويتلاقى في هذا الرأي مع الروائي الراحل عبدالوهاب الاسواني الذي نفى أن يكون أي شخص في مجتمعاتنا العربية اعترف بشكل كامل إلا في استثناءات التي لا يقاس عليها بالطبع، ويمكن للكاتب أن يخفي ما اقترفه في شخصيات قصصية متخيلة.

ولهذا ستكون استرجاعات الذاكرة البعيدة والحميمية بشكل صادق في أدب الاعتراف الذي يرتكز على البوح والإفصاح عند الكاتب العرب مرتبطة بسياقات وأبعاد نفسية واجتماعية وسياسية وثقافية وحضارية وهوياتية، كان بالإمكان أن تصحب شهادة عميقة قد ترقى بإدب الاعتراف إلى مصاف وثائق ومصفوفات يمكن الاعتماد عليها في الأبحاث الاجتماعية والانتروبولوجية والتاريخية.

وما دام أدب الاعتراف يعد رافدا مهما يصب في بحر السيرة الذاتية دون أن يكون سيرة، فهو كما يقول الكاتب خيرى شلبي، جنس أدبي يقر من خلاله صاحبه البوح والإفصاح حتى يريح ويستريح وهذا الجنس الأدبي مليء بالأنشواك ولذلك لم يطرقه سوى قلة من الأدباء العرب رغم أنه شائع في الغرب



محمد شكري لم يسر الكثير من الكتاب العرب على نهجه



العرب يخشون الاعتراف

سيرته الذاتية كاعترافات، كما أن ربط الواقعي بالمتخيل في عمل الكاتب يقلل من قوته ومصداقية سيرته الحياتية، حيث يتفنن في تغطية أحداث ووقائع حقيقية بجلد سميك من الخيال حتى لا يتم نبذ مجتمعا الشيء الذي يجعلنا لا نتحدث عن أدب اعتراف.

بيئة طاردة

البعد عن الصراحة في اعترافات الكتاب العرب يردها البعض إلى الخوف من بطش المجتمع المحافظ ومؤسساته، على اعتبار أن الاعتراف بالأخطاء والسلبيات ومكامن الضعف في حياة هذا الكاتب تشعب على منظومة تربوية وسياسية واجتماعية وتعليمية ساهمت في تشكيل وعي وذهنية ونفسية ذلك الكاتب، وأي بوح فهو يعري الغطاء عن أسرار كثيرة لا يود الكثير كشفها.

قوبل مؤلف الخبز الحافي بالصد وعدم القبول بعدما تمت ترجمته إلى العربية في سبعينات القرن الماضي، إذ تمت مهاجمته بعنف وضراوة ومنعت في عدد من الدول العربية وتم التضييق على صاحبه كونه كشف جانباً مستورا من حياة الكاتب والمجتمع على حد سواء.

ولهذا تنهأه مع رأي إيهاب النجدي، في هذا النوع من الاعتراف الذي يصفه جودلا بشق طريقا محفوقا بالمخاطر، يتسوع ويضيق على قدر ما يمتلك صاحب السيرة من شجاعة الصراحة، والاطمئنان إلى المكاشفة مكاشفة الذات والآخر معا، والاعتصام بالصدق -النسبي بالتأكيد- لا يرده عنه إلا عارض من نسيان، أو إثارة من خوف ومدارة.

في كتابة سيرتي الذاتية ووضعتها في كتاب مستقل؛ لأنني كتبت سيرتي في رواياتي وقصصتي، فهو كروائي عربي ينتمي إلى مجتمع محافظ ويعي جيدا القوانين التي تحرك بيئته السياسية والاجتماعية والقبائلية فلم يقرب من موقد نار الاعتراف بل البس أجزاء من حياته الخاصة لشخصياته الروائية دون أن يتحدث مجتمعه ويتجرأ على إسقاط الألقاب.

بإجماع متخصصين في الدراسات الأدبية وعلم الاجتماع فإن أدب الاعتراف لن ينتعش في ظل بيئة سياسية واجتماعية وثقافية تنظر للبوح على أنه شبهة وتهديد للتقاليد التي تأسس عليها المجتمع العربي، هذا الأخير الذي طبع منذ زمن بعيد مع المداراة والتستر على السلبيات وإظهار الإيجابيات ولو نفاقا، حتى إذا عرنا على أسماء كتابات عربيات نجد أنهم لم يتجرأوا كذلك على فضح المستور وعصيان النظام العام داخل المجتمع حتى الشهيرتين نوال السعداوي وغادة السمان لم تكونا صريحتين جدا وكاشفتين للذات إلى حد بعيد في مؤلفيهما على التوالي "أوراق حياتي" و"رسائل غادة السمان وغسان كنفاني".

أدب منبذ

لماذا يعتبر أدب الاعتراف محط شبهة وموضوع ارتباب في العالم العربي، سؤال أجاب عليه الناقد العراقي عبدالله إبراهيم، كون الجمهور لم يترس في قبول الحقائق السريّة الواقعية، فبيري في جرأة الكاتب على كشف المستور سلوكا غير مقبول، وإقراطا في فضح المجهول، فالاعتراف محاط بالكثير من ضروب الحذر في مجتمعات تقليدية تتخيل أنها بلا أخطاء، فتبالغ في ذكر نغم الله عليها، وكأنها هيئات خصّت بها دون سواها، وتتحاشى نكر عيوبها، وتتوهم أنها تطهّرت من الأثام التي وازلت على اقتراها مجتمعات أخرى، فتدفع المخاوف كثيرا من الكتاب إلى اختلاق تواريخ استرضائية لمجتمعاتهم، وابتكار صور نقية لذواتهم، متجنّين كشف المناطق السريّة في تجاربهم، وإظهار المسكوت عنه في مجتمعاتهم، فصنّوا عمّا ينبغي عليهم قوله أو زيفوا فيه، وربما أنكروا وقوعه، يريدون بذلك الحفاظ على الصور الشفافة لهم ومجتمعاتهم

مع محمد شكري، الكاتب المغربي صاحب رواية الخبز الحافي كان الأمر مختلفا إلى أبعد حد، فقد وصف بشكل دقيق أول لقاءاته الجنسية مع المرأة الأولى داخل مأخور، بعدما كان يسرق نقود أمه كي يشتري معجون الحشيش

الأسئلة الشخصية والجماعية، وتبادل المواقع في ما بينهما؛ فالكاتب منبثق من سياق ثقافي، وتجد الإشكاليات المثارة كافة في مجتمعه درجة من الحضور في مؤنثه السريّة.

وعلى هذا الأساس قطعت كتابة محمد شكري شوطا كبيرا في التعبير عن هوية الكاتب المتمردة والتي لم تكن متمركزة فقط على ذات الكاتب بل تعدته إلى جوانب من حياة الآخرين، وإذا فحنا اعترافاته من خلال بوابة "الخبز الحافي"، الكتاب الذي لاقى شهرة واسعة في الغرب والتضييق بعدم نشره في المغرب والعالم العربي، نجد المتن قد جاء كاشفا صادما معريا للكثير من المكتوبات فضح الكاتب في اعترافاته ما يعتل داخل المجتمع من تناقضات بلغة سلسة وفاسقة إلى حد كبير.

وهناك من يصف "الأيام" لطله حسين وكتاب "أنا" للعقاد أو توفيق الحكيم في "سجن العمر"، أو "أوراق العمر" للويس عوض كسير ذاتية منطلقت الأشياء والناس حسب منطلقاتهم الحياتية دون الكشف الصريح لدقائق معيشتهم وإخفاقاتهم الخفية، وليس بالضرورة أن تكون درسا في الأخلاق أو التربية، ولهذا لم ترق إلى عملية اعتراف صريح كما كتب محمد شكري، الذي تجرأ على الكشف بجمالية ودهشة عن المكتوبات إلى جزئيات تعتمل داخل المجتمع والناس. كما أن الالتباس المفرع بين مفهومي الفن والأخلاق قد يعتبر مانعا سيكولوجيا لدى الكاتب يفقده القدرة على البوح ومما يجعل من أدب الاعتراف في أزمة مزمنة لدى الكتاب العرب وفي وقتنا هذا رغم الانفتاح الذي سهّلته الثروة البيوتكنولوجية في عصرنا الحالي.

أما اعترافات جان جينيه يمكن اعتبارها صادمة ولا تتماشى مع السائد في مجتمعات عربية كما أنها تنهأه مع تلك السرديات التي تعتبرها لا أخلاقية وتثير الفتنة، وهذا ما ضيق على أدب الاعتراف في السرديات العربية، إلا القليل الذي نجح من مفصلة الرفض ببسالة.

روسو تفاعل مع عصره فأبدع كتابات لازالت تمثل نموذجا جديا في أدب الاعتراف، إذ كان الرقيب الذاتي عند

هذا الكاتب في أدنن مستويات عمله، ما ساهم بشكل كبير في خلق هامش كبير من الحرية استثمرها روسو في رصد كل تفاصيل حياته بجرأة كبيرة، عكس ما نجده لدى زمرة من الكتاب العرب الذين طغى عليهم ذلك الرقيب الذاتي منعهم من التماهي في كتابة اعترافهم وحبثها إلى الأبد.

أما الروائي والكاتب المصري نجيب محفوظ فقد كان ذكيا عندما قال "لم أفكر

